سعيد تقي الدين والقصّة القصيرة

بقلم الدكتور سهيل ادريس

ظل سعيد تقي الدين طوال ثلاثين عامـا في مهجره يغني العودة الى الوطن ، ويحمل كل مايكتبه هذا الحنين العميق ، عبـر مسرحيات وأقاصيص يمثل الدور الاول فيها « المغترب » ويدور موضوعها الرئيسي حـول « الارض » .

ولكن سعيد تقي الدين عاد الى لبنـان ليعيش فيه قلقا سياسيا عنيفا ضيع فيـه نفسه وقدَره ، وانتمى الى حركة القوميين الاجتماعيين التي ننكرها نحن القوميـين العرب ، ثم اضطر الى مغادرة وطنه فـي اعقاب الثورة اللبنانية ، وعاد الى المهجـر ليموت في أعنف اغتراب روحي عرفـه اديب في هذا العصر .

ولكن الغريب في امر هذا القصاص ، انه انتهى اديبا حين بدأ سياسيا ، فلم يكتـب قلمه أثرا فنيا واحدا بعد انخراطه السياسي . وحين ندرس قصته ، ونقف على ماتحمله من قيمة في تاريخ قصتنا الحديثة ، ندرك الخسارة التي نزلت بفن القصة القصيرة في لبنان بعد موت سعيد تقي الدين ، لامنذ شهرين ، بل منذ عشر سنوات علـى الاقـل .

ولسنا نقصد بذلك ان نحرم على الاديب ان شـارك في الحياة السياسية لوطنه وقومه ، فالاديب الحـق لايستطيع الا أن يشارك ، ولكننا نطلب ان يحول دون أن تقتل هذه المشاركة الفنان فيه .

والواقع ان سعيد تقي الدين قد انتهى اديبا حين اصبح داعية ، وغدت كتاباته بوقا للتسبيح بمبادئه . وكم كنـا نود لو انه ضمّن معتقداته رواية او مسرحية ، او حتى قصة قصيرة ، تكون قبل كل شيء رواية او مسرحية او قصة . لو فعل ذلك ، لتضاعف كسب الادب منه ، ولما خسرنا فيه وجها من ألمع قصاصينا المعاصرين .

✶

صدر لسعيد تقي الدين عشرة كتب منها اربع مسرحيات تتضمـن اثنتان منها مجموعتين من القصص ، ومجموعتان اخريان ، واربـع مجموعات من المقالات اكثرها سياسي . ويعنينا هنا ان ندرس قصته القصيرة في مجموعاته الاربع : « الثلج الاسود » (١٩٤٦) و « موجـة نـار » (١٩٤٨) و « غابة الكافور » (١٩٥١) و « ربيع الخريف » (١٩٥٤) .

وليست اقاصيص هذه المجموعات مجرد سرد حادث او عرض صراع او تصوير شخصية ، وانما يكمن خلفها كلها اثير من « صوت خاص » يربط بين الانتاج وبين مؤلفه اوثق ربط . ان حياة المؤلف ، بتعبير اخر ، تنبض وراء هذه القصص وتمنحها ضمانتها وصدقها ، بحيث لايبدو كاتبها حرا في ان يخلق مايروق له خلقه ، فيتعرض بذلك لسهولة التخيـل والاعتباط ، وانما يروي قصصا « حقيقية » تفترض تجربة واقعية ليس من الضروري ان تؤلف الحدث كله ، وانما يكفي ان تكون نقطة انطلاق له ، او نقطة نهاية . ومن اليسير على قارىء هذه الاقاصيص ان يشعر بان مؤلفها لايخلق شخصياته خلقا ، انما يستل من نفسه ، من حالاتـه النفسية التي تبتعثها تجربته او رؤاه ، ابطالا يعكسون مظاهر خفيـة من شخصيته الخاصة . وان حيوية التعبير المتوتر وحرارة اللهجـة النابضة ، وعمق الشعور المعاش ، كل ذلك يظهر شخصية المؤلف منخرطة في العمل الفني . والحق ان تميز ذلك « الصوت » وخصوصيته همـا اللذان يجعلانه مثقلا بقيمة بشرية قلما نلمس شبيها لها في قصصنـا الحديث ، وهو يثبت لنا ان بامكان صاحب الموهبة ان يبلغ ماهو بشري عـام ، عبر ما هو فردي خـاص .

ويستمد سعيد تقي الدين موضوعاته من منبعين : الهجرة والارض . فاذا عرفنا ان هذين الموضوعين مرتبطان بوضع المؤلف الذي هاجر الـى الفيليبين وتاجر واغتنى ، فيما ظل يحن ابدا للعودة الى ارضه ، ادركنا السبب العميق في حفول اقاصيصه بالنبضة الحية التي تقنع القارىء بالواقعية او باحتمال الوقوع .

ومعظم اقاصيص المجموعات الثلاث الاولى تجري حوادثها في ميـدان التجارة ، او تتناول موضوعا يلعب فيه المال الدور الاول ، ولكن تظـل في ضمائر الابطال الذين يصيبون الغنى خيبة او حسرة او تمزق او ندم ، فكأنهم اغتنوا على غير استحقاق ، او اغتنوا بافقار اخريـن ، او اغتنوا بالخداع والمكر والخيانة .

فـ « موجة نار » هي مثلا قصة رجل كان يعيش في الفيليبين عيشة عوز وفقر ، ولكنها مع ذلك عيشة سعادة ورضى ، اذ كان يرى الحيـاة كلها مرحا وطمأنينة وأمنا . حتى اذا واتاه الحظ فأصبح غنيا ، نغـص حياته كلها همّ جميع المال وصرفه وحرصه عليه ، وحسب يومـا انـه سيسترجع سعادته اذا هو انفق كل ماله في عمل خيري ، وان الدنيـا كلها ستصفق له . وحين وضع « الشاك » بصرف هذا المال امـام عينيه ، تقلصت اصابعه ، وأصاب الشلل يده ، جبنا عن توقيع الشاك ، ولم ينفع بعد ذلك دواء ولا طبيب في معالجته .

وتحتوي هذه القصة التي تبين تأثير الحدث النفسي على الفيزيائي تحليلا دقيقا وغنيا للنفس الانسانية المشدودة الى المادة ، بواسطـة الحركات لا التصوير النفسي . واجمل مقاطعها تلك التي يقارن فيهـا المؤلف بين حياة جميل السفبيني فقيرا وحياته غنيا ، فهي انموذج رفيع لتصوير الهواجس التي تراود الانسان حين يغني فيبخل . اقرأ مثلا هذه

العبارة الراعشة بحرارتها :

« اتذكر يا بحار يوم جاءتني من لبنان علبة الزيتون ؟ وجئت انت ونسيب ويوسف وسليم معي الى البيت ؟ وفي طريقنا اشترينا بستين سنتيما خبزا واربعين سنتيما خيارا . وأكلنا وأكلنا وأكلنا . وضحكنا وضحكنا وضحكنا . اما اليوم ، فان وجوه المدينة يأتون الى العشاء في بيتي ، فلا نتبادل الا المداجاة ، واني اعد عليهم حبوب العنب اذ يأكلون ـ كيلو العنب ثمنه ثلاثة دولارات يا بحار .. »

وانظر قوة التصوير في قوله وهو يتحدث عن جبن جميل حين دفع اليه النشاك ليوقعه : « ان نفسي جفت وتصلبت ، وانطوت على نفسها مثل هذه الاصابع الميتة »

وبمثل هذا النفس كتب المؤلف « لعنة كتاب » و « الطابة الخضراء » و « غابة الكافور » وكلها تتناول موضوعا مشابها : رجل يغتني بعد فقر فيقع بسبب وضعه الجديد في موقف حرج ، ولكنه يتعلق دائما بالمادة ويضحي من اجلها بكل شيء . العقاب العادل ما يلبث ان ينزل به : ان بطل القصة الاولى يذهب ضحية مضارباته فيموت بردا في دير حرمه هو نفسه من وسائل التدفئة . واذا كان بطل القصة الثانية قد سقط تحت وطأة السل لان ثريا امتنع عن اعطائه الستربتومايسين الذي كان يحتكره وحده ، فانه لايموت الا بعد ان يعدي بمرضه ابن الثري ، ذلك الابن الذي كان الوالد يجمع من اجله المال ويستغل الفقراء . واما بطل القصة الثالثة ، فهو صحفي يخشاه الناس لصراحته في مقالاته ، ولكنه يبيع نفسه بثمن غابة من الكافور ، فيشعراخر الامر بانه محكوم‌عليه بان يعيش وحيدا في قصره المترف ، لان اثار الغابة نفسها كانت مطبوعة على وجهه ، وكان واثقا من ان جميع الناس يرونها ، هذه الغابة المجرمة!

ولعل قصة « القدم الناطقة » تعتبر ابلغ تعبير عن فن سعيد تقي الدين في معالجة موضوع الغنى الذي يصيبه صاحبه بلا ضمير . فان حركة بسيطة تكشف النقاب في هذه القصة عن حقيقة كان صاحبها شديد الحرص على اخفائها . انها قصة خادم كان يطمع بثروة سيده ، فقتله وسلبه ولاذ بالفرار ، ولكنه كان قد اعد امر سفره الى امريكا ، وترك زوجة سيده وابنه لتصاريف القدر . وبعد عشرين سنة اشتغل في اثنائها وثمر الثروة المسروقة ، فكر بالعودة الى مسقط رأسه ، فغير اسمه واجرى عملية في وجهه بدلت ملامحه تبديلا كبيرا حتى انه لم يبق يعرف نفسه . بل هو قد اجرى عملية في حنجرته تغير معها صوته . وحين عاد الى لبنان اشاع حوله شائعات ثروته الضخمة ، واشترى قصرا في قريته القديمة ، وراح يستقبل سكانها ببذخ كبير . وكان بين الزائرين ابن سيده القتيل ، وكان قد اصبح استاذا لعلم النفس في احدى جامعات بيروت . فحين سمع المهاجر الثري يعبر عن رغبته بان يرد له الزيارة ، سارع الى اظهار سروره العظيم بهذا الشرف ، ورجا الثري بان يمهله بعض الوقت ليتمكن من ادخال بعض الاصلاحات في بيته ، ثم عين له يوما دعاه فيه الى تناول العشاء عنده . وقام استاذ علم النفس بالاصلاحات اللازمة ، وكان منها ازالة عتبة عالية كانت قائمة على مدخل غرفة الطعام . وتمت الزيارة ، ودعي الثري الكبير الى دخول غرفة الطعام لتناول العشاء . ورفع الضيف قدمه ليرقى العتبة ، العتبة التي كانت قائمة فأزيلت ... واذ ذاك فقط اطلق عليه الابن المتنبه رصاص بندقيته فارداه . وهكذا نطقت قدم الضيف وخانته .

وليس من العسير على القارىء ان يلمس النزعة الاخلاقية لدى مؤلف هذه القصص . ان كل عمل يحمل في ثناياه ثوابه او عقابه . ولكن ذلك ينبثق عفويا من القصة ، لان المؤلف‌يحترس من ان ينصب نفسه واعظا . ان تطور الاحداث هو الذي يوحي بالمقصد ويكشف عن الغاية . وهذا عنصر هام من عناصر الفنية لدى سعيد تقي الدين .

اما موضوع الارض فهو الذي يتيح للمؤلف ان يكشف عن نفسه قصاصا من ابرع قصاصي اللون المحلي والتصوير الاقليمي . فالقرية بحياتها المنطوية واخلاقها وعواطفها التي تختمر في وعاء مغلق هي عجينة خصبة استمد منها صاحب « نخب العدو » عددا كبيرا من اقاصيصه . وهو يهتم اهتماما بينا باستغلال تلك العواطف التي تغلي وتفور وتكون مادة جديرة بان تعجن ويفاد منها ، فمنها ينتج حب عظيم للارض كما نرى في قصة « حمود » وخصوصا قصة « المرساة » التي تصور حالة نادرة من احوال الحب الابوي ممتزجا بحب الارض الخيرة . فقد كان بطل هذه القصة مخيرا بين ان يبيع ارضه ليتيح لابنه ان يبدأ علمه ، او ان يختفي ليعتبر ابنه يتيما « لان الايتام يقبلون بالمجان في مدرسة القرية » . ولكنه يختار حلا ثالثا فينتحر . وبذلك أثبت شدة تعلقه بأرض الاجداد التي سيحفظها الابن لنفسه . وحين اصبح الابن رساما كبيرا ، خلد ذكرى والده في لوحة تمثل سفينة كبيرة ذات مرساة . ان تلك المرساة ليست الا والده الذي اغرق نفسه من اجله ، اي ليعوم هو .. وقريب من هذا موضوع قصة « المرحوم » الذي يعالج فكرة افتداء الابناء .

وفي « صورة ام فريد » حب رؤوم لايقل انسانية عن حب القصة السابقة . و « شيخ القافلة » و « ظل الصوت » و « ضيعة الكلاب » تقدم لنا لوحات هامة عن التقاليد والعادات القروية في لبنان . وجميع ابطال هذه القصص مدموغون بالاخلاص والصدق والبساطة والنبل وحس الكرامة ، وهم يوحون الحب ويجذبون الى قراهم ود المدنيين واحترامهم.

وقد يكون « الحقد » هو اكبر موضوع عالجه المؤلف حين صور حياة القرية . والحق ان هذه العاطفة الكاسحة تتأكل نفوس كثير من القرويين الذين يتميزون في الوقت نفسه بالسماحة والنجدة والغيرة . ولعل قلوب اهل القرية في لبنان هي اوسع القلوب البشرية في احتواء المتناقضات من الاحاسيس . انهم متطرفون غاية التطرف ، يحبون اعنف الحب ، ويبغضون اعنف البغض ، ويحقدون اعنف الحقد . حتى بين الاخوة ، تبلغ الضغينة ذروتها . و « قفزة النهر » تحلل مثل هذا اللون العجيب من الوان الضغينة يكنها اخ لاخيه التوأم ، وكان امله دائما ان يتمكن يوما من قتله لسبب ما . وقد قفز يوما الى النهر الذي كان اخوه يصطاد على حافته ، واوشك ان يخنقه بيديه لو لم يتدخل بعض القرويين ، وتم العزم يومذاك على ان يعيش الاخوان منفصلين ، ويسكن كل منهما بلدا . ومر على ذلك اربعون سنة اصيب في اثنائها الاخ الحقود بأمراض خطيرة عجب الاطباء انه استطاع ان يقاومها ويعصى الموت ، وهو لم يمت بالفعل الا يوم عرف في رسالة ان اخاه البعيد قد مات . وقد شرح احد الاطباء هذا الحادث بان الحقد الذي يمكن ان يبلغ لدى القرويين درجة غير معقولة هو الذي كان يمسك عناصر الحياة عند البطل ويكهربها . فقد كان أشق شيء عليه ان يموت قبل اخيه . فلما اخذ الموت عدوه ، تلاشت القوة الخفية التي كانت تمسكه ، واحدثت انهيار الحياة في جسمه . اما المؤلف فيشرح الامر على نحو اخر : حين تلقى البطل نبأ موت اخيه ، الم يره الناس يشد على اسنانه وتتقلص اصابعه ؟ لقد عرف ان اخاه انتقل الى الضفة الاخرى

من الوجود ، فقفز النهر كالمرة السابقة ليخنق اخاه وعدوه !

هذه القصة التي تصور بعمق قوة الايحاء ، تبرز في الوقت نفسه اهمية الفيزيائي وارتباطه بالنفسي . والحق ان معظم اقاصيص هذه المجموعات تنم عن ان المظهر الفيزيائي لا يمكن ان يكون في نظر المؤلف : « أجوف » فارغا ، وانما هودائماذو معنى . فوجه ما ، ووضع ما ، وحركة ما ، هي دائما محملة بطاقة نفسية معينة وبقوة دراماتيكية . وهو ان صور شخصا من الخارج ، فانه يصوره من الداخل في الوقت نفسه ، لان تعبيرا بسيطا من تعبيرات الجسم ، كحركة او مشية خاصة ، يوحي برد فعل معنوي ، وبموقف نفسي لا حاجة الى توضيحه او التعليق عليه .

*

لسنا نبالغ اذا ذهبنا الى ان سعيد تقي الدين هو بين كتاب القصة اللبنانية اكبر قصاصي « الهجرة والاغتراب » ، وهو بالتالي خير من يمثل « النكهة » الخاصة التي تختص بها القصة العربية في لبنان ، واللون المحلي الذي يميز انتاج بلد ما عن بلد اخر . واقاصيص صاحب « الثلج الاسود » ترمز الى عواقب الهجرة من الناحيتين النفسية والاجتماعية . فمعظم ابطاله مهاجرون اصابوا غنى بعد فقر ، فقام في نفوسهم الصراع بين الواقع والمثال ، بين الشهوة والطهر ، بين الطمع والزهد ، بين الانانية والتضحية . وقد كان الامر ينتهي بهم ابدا الى تغليب الواقع على المثال ، وفي هذا تصوير حقيقي لاوضاع المهاجرين الذين يعيشون في اوساط الالية والمادية ، فيصبح معظمهم آليين ماديين. على انهم لا يتمتعون بلذائذ طمعهم وشهوتهم وانانيتهم ، بل هم يصيبون جزاء عادلا هو في الحق تكفير عن اطماعهم ، واستغفار عن تمريغ مثاليتهم بالطين والوحل . ولا شك ان في ذلك رمزا لتمجيد الارض الخيرة ، القنوعة المقنعة ، المحبة الحبيبة .

واذا كان الحاح المؤلف على هذا الموضوع يمنحه العمق ، فانه يسيء في الوقت نفسه الى تنوع الافاق . وهذا مايؤخذ على سعيد تقي الدين. ان قصصه لاتكاد تخرج عن موضوع اكتساب المال في المهجر وما يجره ذلك من احداث وصراعات . وقد ذكرنا ان هذا الموضوع مستمد من حياة المؤلف نفسه ، ومزية ان يكون فن الكاتب صادرا من اعماق وجوده ، منتزعا من ثنايا الشعور ومن طوايا التبرم ، وان يكون كل شيء معاشا ان لم يكن دائما بالفعل فبالشعور والتأثر . ففي ذلك تجربة داخلية ومعرفة حقيقية للنفس . ولكن التجربة الشخصية لاتكفي لاستكمال ابعاد عالم بسيكولوجي قائم بذاته ، لانها تفتقد التنوع ، فتعطي صورة ناقصة عن الحياة .

والواقع ان القارىء يبحث في اقاصيص سعيد تقي الدين عن آفاق اخرى تختلف عن افق الهجرة والسعي وراء المال والفنى ومشكلاته، فيكاد يعجزه ذلك . وقد يستبشر خيرا حين يبدأ قراءة اقصوصة « ربيع الخريف » لانها تصور جوا عاطفيا غراميا لايجده في الاقاصيص الاخرى ، لكنه مايلبث ان يجد هذا الجو قد ارتبط سريعا بجو العمل والتجارة !

وقد يكون مرتبطا بهذا المأخذ اننا نفتقد في اقاصيص سعيد تقي الدين تعبيرا عن قضايا العصر الكبرى التي عاشها هو او التي عاشها جيله ، ككارثة فلسطين ومأساة التمزق التي خلفتها في ضمير كل عربي ، وقلق الاجيال الجديدة على مستقبلها ومصيرها ، ونشدانها ملاذ تغذي فيه املها باسترداد مافقدته من شعور العزة والكرامة ، ومشكلة المرأة في الحياة العربية الجديدة ، وما الى ذلك من القضايا التي لابد للاديب ان يعيشها اذا كان حقا شاهد عصره ، وكان من المشاركين في تقديم هذه الشهادة للتاريخ الادبي .

اما كفنان تكنيكي ، فنعتقد ان المؤلف لاتعوزه البراعة والصناعة . ذلك ان فنه يخلق قبل كل شيء جوا يقيم فيه جسم الحبكة على قواعد ثابتة . والذي يبتعث هذا الجو مجموعة من التفاصيل تؤلف تأليفا بديعا بناء القصة ، وتبرز المشهد الرئيسي فيها بواسطة انارة حكيمة ، بحيث ان كل شيء يسهم اول الامر باعداده ثم باظهاره بصورة نافذة . ويعتقد المؤلف نفسه ان احد العناصر الرئيسية التي ينبغي ان تشكل تكنيكا كاملا في التأليف القصصي « ان تدس الحادثة التي تريد ان تستغلها بين كثير من الحوادث بحيث ترسخ في عقل القارىء الباطن ، من غير ان ينتبه اليها . ولكنك حين ترجع الى استثمار تلك الحادثة او الصورة او العبارة ، تقفز تلك الصورة او الحادثة او العبارة من العقل الباطني وتنسجم بما تريد ان تستغله . » (١) وهو يرى ان من عناصر الصنعة التنبه الى التفاصيل وخلق جو حقيقي في القصة ووضع تصميم هندسي لها .

غير ان براعة المؤلف في ربط الاحداث وسلسلتها وجعلها منطقية في التدرج وتقليص مدتها الزمنية بالايجاز والتلميح والايحاء ، كل ذلك يخفي مأخذا اخر نقع عليه اذا استعرضنا اقاصيصه . ونقصد به توسيع رقعة الحدث القصصي بحيث يصبح حدثا روائيا او احداثا روائية كاملة . فمعظم هذه الاقاصيص تروي حياة بطل برمتها ، وهي تنتهي بموت البطل او سقوطه في مرض خطير او قتله او انتحاره ... ولا نكاد

(١) « حفنة ريح » قسم مراسلات بين المؤلف وسهيل ادريس .

دار مكتبة الحياة في بيروت

صدرت عنها الكتب الجديدة التالية

الجزيرة والاسلام	(تأليف دانيل دنيت)
عبقرية الفاطميين	(تاليف محمد حسن الاعظمي)
ثورة العراق	(تأليف كار اكتاكوس)
الملوك الهاشميون	(جيمس موريس)
اندولف تشرشل يناقش ايدن	(رأندولف تشرشل)
مذكرات ايدن	
كانت لنا ايام	(حسين السيد)
عذارى الهياكل	(جوزيف حرب)
غابة الابنوس	(صلاح احمد ابراهيم)

دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ ص.ب ١٣٩٠

نجد اقصوصة واحدة تقوم على تصوير لحظة نفسية قصيرة ، وتتفادى الضخم من الاحـــداث ..

*

لاشك في ان سعيد تقي الدين متأثر بالقصة الاميركية موضوعاواسلوبا. وتأثره بالموضوع معزو الى انه شارك الاميركيين حياتهم فترة طويلـــة من حياته . وهو متأثر باسلوبهم في معالجة القصة ، من حيث ان تكنيكه جاف واضح وعنيف . فليس هناك تصوير للعواطف ولا للمناظر ، وانمـا هو يعبر عما يريده بواسطة الحركات والاحداث ، وتأثر القارىء يولـد من اكتشافه لما يريد المؤلف ان يعبر عنه بحاسته التراجيدية والفنية .

وبالرغم من ان الكاتب يحرص على تفادي التعليقات ، ولا سيمـــا الخلقية منها ، فانه لاينجو دائما من ايراد عبارات تقريرية تقطع السياق السردي وتبرز تدخل المؤلف بطريقة مزعجة . فقد جاء في قصتـــه « المرحوم » مثلا : « وكان من الطبيعي ان يفكر الناس ـ والناس فـــي القرى يقررون امور جيرانهم ـ ببيع الكرم .. » وعند احد المقاطع ، توقف المؤلف عن السرد ليقول : « بعض المصائب يؤجل يومها ولكـــن وقوعها محتم ، فانتهى الامر بدفع الدية » ويقول في مكان اخر : « يـــد الخراب تبطش حين تغيب يد العناية » الخ ... .

ويملك الكاتب بعد هذا لغة شاعرية نابضة تحفل بالاستعارات والصور والتوتر ، وتخلق لدى القارىء فضولا متنبها للاستمتاع بالمعاني الجديدة والاكتشافات التعبيرية المبتكرة . ولا نحسب ان اسلوبا من الاساليـب العربية الجديدة ينم على صاحبه كما ينم هذا الاسلوب . وروح الفكاهة عنده نادرة في ادبنا الحديث ، وهو لاشك متأثر في ذلك بالكاتـــب الاميركي « او.هنري » ، كما انه يذكرنا في ايثاره الحدس على التحليل باقاصيص « شرود اندرسون » . ولعل نصف الوعي الذي استغله فـي « القدم الناطقة » و « لعنة كتاب » و «ظل الصوت » هو صدى لنزعـة اندرسون نفسه . ثم انه يستدعي الى ذهننا احيانا طريقة وليم فولكنر، من حيث انه كثيرا مايبدأ قصته من نهايتها ، فيضعنا تجاه عناصر متفرقة لقضية ما نتوصل نحن الى بنائها وحلها بعد سلسلة من الاوصـــاف والمونولوجات الداخلية (المرساة مثلا) .

*

من القصص التي لازالت منطبعة في ذهني ونفسي قصة « الصورتان» التي قرأتها منذ اكثر من عشر سنوات منشورة في احدى صحف بيروت. وقد ظهرت في مجموعة « غابة الكافور » بعد ذلك . وهي تروي قصـة محام لبناني توجه الى سوريا ليدافع عن قضية احد القتلة ، علىيقينه من ان القاتل كان مجرما وكان ينبغي ان يحكم عليه بما يستحق . ولكنه لم يكن اقل تيقنا من انه سيتمكن من تبرئته بما اوتي من براعة . وفـي يوم الدعوى توجه المحامي الى دمشق ، فمر في طريقه بقرية لبنانيـــة التقى فيها بغلام يشير له ان يقف سيارته ويحمله معه الى منزله فـي القرية المجاورة . واتفق المحامي مع الصبي في اثناء الطريق على ان يجلب له من دمشق اذ يعود في المساء زوجا من الاحذية مقابل ارنـب بري يقدمه له الصبي مما يكون قد اصطاده في ذلك اليوم ، لاسيما وان تراكم الثلج كان يعد بسهولة صيد الارانب . ولكن المحامي لم يعـــد الى بيروت الا في اليوم التالي ، بسبب ان ذوي موكله الذي اعلنت براءته في ذلك اليوم قد استبقوه لديهم ضيفا . وقد شرب كثيرا في ذلـك المساء .. وفي اليوم الثالث ظهرت في احدى الصحف صورتان : اولاهما صورة القاتل الذي برىء ، والثانية صورة « صبي وجد ميتا تحت الثلج وبيده ارنب » ... وتنتهي القصة بمشهد المحامي وهو يشرب الويسكي ليتعزى من جريمته ..

ان حس الفجيعة الذي يبرز من هذه القصة ينم عن ادراك عميقللحياة. والندم الذي يشعر به المحامي لانه دافع عن قضية ظالمة وسبب موت صبي بريء ندم لا يمكن التعبير عنه . ولكن فن المؤلف تغلب على هذه الصعوبة اذ جمع الشخصيات والقصة والمدى والحقيقة نفسها في توازن حكيـم وتاليف رائع كانا وحدهما جديرين بالتعبير عن اعماق ذلك الندم .

وميزة سعيد تقي الدين الاولى انه يسعى اذ يقدم لك احدى قصصه ان يعري لك العاطفة البشرية فيبث في نفسك هزة انسانية هي اقصى ما يطمح اليه الفنان . الا نقرأ له عبارة تلخص بطريقة لا واعية كـل تجربته الانسانية والفنية حين يقول في معرض حديثه عن ذكريات حياته (1) .

« اسائل نفسي ما هم الناس بحكاية رجل افتقر ثم لم يعد فقيرا ، وفتى اقدم على الانتحار ثم لم ينتحر ، واخر حلم ببناية فنالها ابنه ؟ كل هذه امور توافه . ومن التوافه ايضا اختراع التلفون ، واحتلال برلين ، واكتشاف البنسلين. الامر المهم هو النفسالانسانية واختلاجاتها. ولقد نقلت لك نبأ رعشة روحية » .

هذه الرعشة الروحية هي التي تهزك حين تنتهي من قراءة احدى اقاصيص سعيد تقي الدين ، وهي التي هزتني حتى الاعماق حين قرأت نبأ نعيه في آلم اغتراب روحي عرفه اديب في هذا العصر ..

سهيل ادريس

(1) انظر « دروب موحشة » في مجموعة « ربيع الخريف » .

نسوان من لبنان

للاستاذ اسكندر رياشي

ليالٍ حمراء في قصور العظماء ، فضائح غراميات ، مغامرات ، تقرأها كلها في كتاب « نسوان من لبنان »

٤٠٠ صفحة طباعة أنيقة رسوم بريش اشهر الفنانين

الثمن ٥ ليرات

يطلب من الناشر دار الثقافة ـ ص.ب ٥٤٣

بيروت